من الصورة الملونة والرمز المجرد : « كل قرائي على الحيطان قد صاروا صور » . هذا ما يقرره شاعرنا بفزع . فهو يعرف الشبان الفدائيين معه خلف المتاريس ، اما اذا علقت صورتهم على الجدران فهم قتلى .

قد يحتاج المرء الى هذه التجربة بالذات لكي يكتشف الفرق بين الكائن الحي وصورته المطبوعة . وقصيدة « غزال صنين » فريدة في بابها من حيث تسجيلها المدهش للفارق الصارخ بين الانسان الحي المقاتل والصورة الصامتة الملصقة على الجدار . دع عنك مطلعها النادر المثال :

استشهد الماء ولم يزل يقاتل الندى

استشهد الصوت ولم يزل يقاتل الصدى

وانت بين الماء والندى

وانت بين الصوت والصدى

فراشة تطير حتى آخر المدى

فهذا المطلع نادر ليس لانه جميل ، فهو لو وقع لشاعر آخر من مدرسة الصقل لانساق وراء الغنائية والتجريد والصورة الرمزية حتى وضعنا في السماء السابعة . اما معين بسيسو فانه يبدأ من الرمز ليجر القصيدة وراء الشهيد الى القبر . فالمطلع تمجيد حزين لمقاتل ظلت بطولته بعده مستمرة ، مثلما يستمر الندى بعد جفاف الماء او يسترسل الصدى بعد زوال الصوت . على أعقاب المطلع تبدأ القصيدة :

يذهب للخندق

يترك دمه

ويعود الى الحائط ملصق

فالقصيدة تضفر حكايتين ، الاولى ذهاب المقاتل الى خندقه ومقاومته واستشهاده ثم نقله من الخندق الى المستشفى ووضعه في النعش وحمله على اكتاف رفاقه .. والحكاية الثانية هي حكاية صورته المعلقة في نافذة بيته وكيف مشت الى المطبعة وانتظرت عجينة الالوان ثم سارت مع الموكب ، فلما الحد الشهيد الصقت فوق الجدار ولكن سرعان ما غطتها صور اخرى لشهداء آخرين . انها قصيدة فريدة في باب الرثاء في الشعر العربي بأكمله ، قوامها المفارقة بين المقاتل الحي وصورته ، وهي مفارقة لا يمكن استنباطها بالفكر ولا بالخيال بل لا بد لك من ان ترفض كلا الفكر والخيال لتبصر الامر على حقيقته . وحقيقة الامر ، كما يراه معين بسيسو في القصيدة ، ان المقاتل الحي حقيقة واقعة وان الصورة الملصقة حقيقة اخرى اشد واقعية وامعن ايلاما في النفس . فهي تدل على القتل ، والقتل سلب للحياة مثلما ان الصورة سلب للاصل .

في كل الحالات لا توجد رموز بل وقائع ، اشياء ، موجودات ... سمها ما شئت ولكن اياك والتجريد فالتجريد يقتل الوطن ويحوله الى قضية :